أي أيامك أجمل يا محمد؟

(((1)))

أيوم خلع عليك ربك أجمل حلّة وأقشب رداء فقال فيك : وإنك لعلى خلق عظيم؟ هكذا بكل أدوات التأكيد البيانية والمعنوية. لم يرض الخلق العظيم أن يتسربل بك سربالا أو أن يكون لك نطاقا. لا. ذلك لا يشفي غليله. ما أرضاه إلا أن تستوي فوق عرشه الكريم كما يستوي الملك المظفر فوق عرشه فلا ينازعه فيه أحد. هكذا نكّر الخلق ليشمل كل خلق طيب عظيم كريم. لم يتردد الوحي أن يجلسك هذا المجلس العالي إذ جاء ذلك في الأيام الأولى من بعثتك نبيا هاديا مهديا. خلقك مع ربك عظيم وخلقك مع نفسك عظيم وخلقك مع الناس كلهم عظيم. أنى لي أن أتصور أن العظيم سبحانه أجلس محمدا عليه الصلاة والسلام على عرش الخلق العظيم؟ ميدالية أغلى من الذهب وأطيب من المسك لم ينلها أحد قبلك ولا أحد بعدك. هنيئا لك وهنيئا للإنسان بك

أم يوم أخبرك أنه يصلي عليك سبحانه وملائكته معه صلاة ويسلمون تسليما؟ الله في علياء علیائه يصلي عليك؟ والملائكة؟ كم عددهم؟ الله أعلم بجنوده. كلهم يصلون عليك بصيغة الإستمرار بقاء ومضاء وإطرادا لا يتخلف. الصلاة دعاء ودعاء الله قضاء. قضى عليك ـ بل لك ـ بالخير كله. بل إن الكون كله ـ الحياة والوجود ـ في حركة صلاة وتسبيح إذ قال : هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور. أي أن الله نفسه سبحانه وملائكته يصلون على المؤمنين. والمؤمنون يصلون على محمد عليه الصلاة والسلام. ألا ترى أن الكون كله وهو في حالة حركة يصلي؟ ألا ما أكفر الإنسان وهو يكفر والكون كله في حالة ضراعة

أم يوم أسري بك وعرج من مهجعك بمكة إلى القدس الشريف ثم إلى أعلى نقطة في الوجود وآخر لبنة في الكون؟ براق يخترق بك الحجب بأسرع من سرعة الضوء ليصل بك إلى سدرة المنتهى حيث المنتهى وحيث جنة المأوى. مكان أعلى في الكون لم يصل إليه جبريل ـ أمين الوحي ـ نفسه إذ تأخر في مكان ما وتقدمت يا محمد صلى الله عليك وسلم. أبعد هذا التكريم تكريم؟ أبعد هذا التجليل تجليل؟ أبعد هذا التجميل تجميل؟ كلا. هناك حيث يأنس العابد بالمعبود. هناك حيث يكرم الضيف ويبجل ويقدم. هناك حيث رأيت الذي رأيت. رأيت من آيات ربك الكبرى. ما الذي رأيت يا محمد؟ لم ما زاغ منك البصر وما طغى؟ هل رأيت ربك يا محمد؟ نور أنى تراه كما أخبرت السائلين. هي رحلة التكريم جائزة تشجيعية على سعيك صبرا وشكرا في المرحلة المكية ملؤها العذاب والتهجير والنفي والقتل والقهر والسحق والمقت. هي محطة تأهيلية لمرحلة مدنية أخرى فيها الكيد الإسرائيلي وفيها المكر العربي وفيها الزحف الرومي. المقاوم يحتاج إلى ساعة أنس وجائزة تشجيع

(((2)))

أم يوم قدمك ربك على المؤمنين كلهم أجمعين يفدونك بما يملكون وبما لا يملكون إذ قال : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ أنت أولى منا جميعا بكل خير وفضل. أولى منا بالحياة إذا كان لا بد من الموت دونك وأولى منا بالدفء إذا كان لا بد من الصر والقر. أي مكان هذا يا محمد؟ أولى من الإنسان من نفسه وليس من ماله فحسب؟ أجل. الذين عرفوك أحبوك وقدموك وبجلوك وكرموك حتى إن أحدهم شرب دم حجامتك فحال دمك دونه ودون النار ـ عبد الله إبن الزبير إبن العوام ـ وإنتفض صليب مغلول إنتفاضة الأسد الهصور لما سمع أحدهم يساومه أن يكون في بيته آمنا ويكون محمد مكانه. ألم تقل العرب : الإنسان عدو لما جهل؟

أم يوم رفع الله نساءك على نساء العالمين حتى إنه جعلهن للمؤمنين والمؤمنات أمهات ولم يعرضهن للنكاح بعدك؟ ألم يقل : وأزواجه أمهاتهم؟ هن لنا أمهات أمومة روحية. أبعد هذا الفخر من فخر؟ كلا. إكرامهن إكرام لك يا محمد. ها نحن نترضى عليهن وعلى أصحابك من الرجال والنساء. أولئك الذين إتبعوك بإحسان. أولئك الذين عرفوا شناعة التقليد فلم يقلدوك بل إتبعوك. لم يتبعوك الإتباع الأعمى كما يشيع عندنا نحن اليوم بل إتبعوك بإحسان. من تمام إكرامك ألا يطأ رجل إمرأة وطأتها أنت يا محمد. أبعد هذا الفضل فضل؟ كلا

أم يوم رفع ذكرك؟ ألم يقل : ورفعنا لك ذكرك؟ أليس إسمك يصحب شهادة التوحيد أبدا ودوما؟ أليس يرفع الأذان بإسمك وتقام الصلاة بإسمك؟ أليس في كل خط طول من خطوط الأرض الطوافة يذكر إسمك سرا وعلنا؟ ذاك هو رفع ذكرك. ذاك الذكر الذي حرص الأولون وأشياعهم اليوم على طمسه وقبره. ها هو يرفع ولن يزال مرفوعا حتى يوم الدين. ذكر لإسمك وذكر لكتابك وذكر لدينك. الأرض كلها اليوم تتحدث عن دينك سواء حديث إعجاب وإتباع أو حديث سوء. أنى لقدر الله إلا أن يكون مرفوعا؟

(((3)))

أم يوم أعطيت الكوثر؟ الكوثر بهذه الصيغة التفضيلية العظمى وليس بعدها لسانا من تفضيل. الكوثر مصدر الكثير ومعين الأكثر. الكوثر من كل شيء. أعطيت الكوثر في أقصر سورة. أعطيته جزاء وفضلا بما قدمت من صلاة لربك فحسب ومن نحر لربك كذلك فحسب. من كوثرك الفياض : أنت صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة فلا تجد البشرية جمعاء قاطبة شفيعا يتقدم لربه سبحانه أن يقضي بينهم فحسب إتقاء لرمضاء الحشر عداك. تذهب وتسجد وتظل ساجدا ضارعا حتى يؤذن لك : قم وأدع تجب

وسل تعط يا محمد. تلهج بذكرك في الدنيا : اللهم أمتي أمتي. ألم يرضك في أمتك إذ قال : ولسوف ترضى. ألم تقل لك الأم العظيمة عائشة : كأن الله يسارع لك في هواك. من كوثرك : المقام المحمود ونلته فضلا على نافلة هي أشد وطئا وأقوم قيلا. كوثرك فياض معطاء لا ينضب. والله وحده أعلم بما في كوثرك يا محمد

أم يوم أعطيت ما لم يعط أحد قبلك ولا بعدك أي غفران ما تأخر من الذنب؟ أعطيت ذلك في هدية جامعة شملت الفتح والهداية والنصر. لا نعلم أن أحدا غفر له ما تأخر عداك يا محمد. غفران السابق مفهوم أما غفران اللاحق فلا حتى يأتي به الوعد الحق وقد أتى. هنيئا لك وهنيئا للإنسان بك. وهل تذنب أنت يا محمد حتى يغفر لك ذنب؟ أنت لا تذنب ولكن النظر هنا إلى الغافر المنان ولا يسأل الملك عن مملوكه ولا يسأل المعبود عن عبده. أنت لا تذنب ولكنها منة المنان ورحمة الرحمان حتى نعلم أن الغفلة عن ذكره طرفة عين ذنب

أم يوم سمّاك ربك : سراجا منيرا؟ علمنا أن الشمس سراج وهاج ثم علمنا أنك سراج منير. الشمس تبرغ على الأرض فتطرد الظلمة ويتسلل شعاعها إلى كل زاوية كانت في عسعسة الليل دهماء بهيمة. أنت هو الشمس التي تبرغ على الإنسان ـ كل إنسان وفي كل آن وأوان ـ فتطهره من أدران الظلم وتخلصه من سجن نفسه أوّلا ثم من سجن القهر بعد ذلك. أنت الشمس المنيرة والإنسان كوكب مظلم ـ كالقمر بالتمام والكمال ـ لا بد له من نور وإلا إحلولكت ظلمته. السراج يوفر الدفء وأنت توفر الدفء الروحي والأمن الفكري للبشرية جمعاء قاطبة

(((4)))

أم يوم أكرمك سبحانه بكرامة أخرى إذ أنه لا يعذب الناس وأنت فيهم.؟ ألم يقل : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون.؟ أنت عنوان الرحمة إذن . أنت عنوان التوبة إذن . أنت عنوان الإستغفار إذن. أليس كذلك؟ بلى وأنت تحول بإذن ربك بين الناس وبين العذاب كما يحول دونهم ودون ذلك الإستغفار. أي كرامة أعلى من هذه؟ أي شرف أعظم من هذا؟ هذه ذروة الشرف. مقامك يأبى أن يحل بالناس عذاب وأنت فيهم. أنت والعذاب لا تلتقيان لا في مكان ولا في زمان. ألست الرحمة المهداة؟

أم يوم شرفك بمقام العبودية؟ ألم يقل فيك : سبحان الذي أسرى بعبده ؟ ألم يقل : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ؟ ألم يقل :تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ؟ أنت العبد وأكرم بالعبودية خير مقام عند المعبود سبحانه. عندما يكون الحديث عن المعبود فإن أفضل مقام هو مقام العبودية. أنت العبد الذي كان يأكل كما يأكل العبد ويجلس كما يجلس العبد فأنت العبد عند المعبود إذن. الذين يستكبرون يستنكفون عن العبودية ويظنون أنهم أحرار. كلا. هم عباد ولكن لمن لا يستحق
بينهم وبين بعضنا اليوم صلة إذ وهبوا ما لا يملكون ـ ظنا منهم أنهم يملكون أنفسهم ـ لمن لا يستحقون كما وهب بعضنا قريبا ما لا يملك ـ فلسطين ـ لمن لا يستحق ـ الصهاينة

أم يوم صنعك على عينه رحمة مهداة ونعمة مسداة؟ ألم يقل : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين؟ ألم يقل : فبما رحمة من الله لنت لهم؟ ألم يقل : لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم؟ أجل. أنت عنوان الرحمة ومعلم اللين وإسم الرأفة. الله رب العالمين وأنت رحمة للعالمين. من رحمة الله أنه رحم البشرية بك فجعلك لهم نبيا ورسولا هاديا وجعلك لهم رحمة مهداة ونعمة مسداة. رحمة للعالمين ومن العالمين مسلمون وغير مسلمين وعاقلون وغير عاقلين وأنت رحمة لتضاريس الأرض كذلك فلا تقطع شجرة أو سدرة إلا لغرض الإنتفاع وإلا فهو عدوان

(((5)))

أم يوم تربعت فوق عروش التوقير والتكريم بين الناس إذ طلب منهم ألا يرفعوا أصواتهم فوق صوتك وألا يجهروا لك بالقول كجهر بعضهم لبعض وألا ينادوك بإسمك المجرد ـ محمد ـ سيما بحضرة المنافقين أن يشغبوا بذلك عليك عدوانا؟ ألم نتعلم نحن ذلك من بدايات سورة الحجرات ومن أواخر سورة النور؟ أنت الموقر بين الناس. وأي ناس؟ إنهم أكرم الناس : أصحابك. رفع الصوت فوق الحاجة قلة حياء ونقص أدب فما بالك إذا كان ذلك في وجه كريم مثل وجهك يا محمد؟ ومثله الجهر بالقول مقارعة ومحاججة وحملقة وحدجا بالبصر ومثلها كذلك أن تنادى يا محمد من دون إضافة شرفك لك أي يا رسول الله أو يا نبي الله. ورد هذا الأدب الأخير في الخندق إذ أن ذلك يجرئ المنافقين عليك. ولكنه الأدب العظيم الذي أحطت به من لدن من أدبك فأحسن تأديبك. ألا يذكرني هذا بالخلق الدمث مع الوالدين؟ أجل. أنت في مقامهما بل أكثر. أنت الأب الروحي للإنسانية إذ أخرجتها بإذن ربها من الظلمات إلى النور

أم يوم علمتنا الأمل يا محمد؟ ألم تحش صدر مشرك بالأمل؟ ألم تقل لسراقة وقد سال لعابه إلى المال : خذل علينا ولك سوارى كسرى؟ أليس هو مشرك غرته الدنيا فامتطى صهوة حصانه يبحث عنك شرقا وغربا يطمع في نيل جائزة قريش : مائة من الأبل لمن يأتي بمحمد أو يدل عليه؟ ألم تبهرنا يا محمد بطريقة معالجتك الموقف؟ ألم تكن قادرا على قتله ؟ ألم تكن قادرا على جعله مغلولا فإما يسحته رمض الصحراء من تحته أو تأكله الطير من فوقه؟ ألم تكن قادرا على التحريش به إذ معك صاحبك الصديق أبو بكر ومولاك زيد؟ لك ألف وسيلة ووسيلة لمنعه أو الإنتقام منه أو تلقينه درسا لا تنساه البشرية وليس هو فحسب.؟ أجل. لا. يا محمد. هذا تفكير السذج. أنت علمتنا أن الإنتقام منه لا يكون إلا بالإنتقام من الكفر الذي حلّ به ومن جنونه بالدنيا إذ أسالت لعابه وجعلته عبدا. كان إنتقامك منه هو أن تعده ـ ووعدك الحق وقد تحقق له بعد ذلك قبل موته ـ بسوارى كسرى. سوارى كسرى مرة

واحدة يا محمد؟ أجل. هنيئا لك بالأمل الذي ملأ صدرك وهنيئا لي أنا ولكل إنسان بنبي مثلك لا ينتقم من عدوه إلا بهدايته وبوضع الدنيا بين يديه. هذا هو إنتقام أهل الأمل وأنت سيدهم يا محمد

أم يوم أخبرتنا أملا ورجاء في الله وفي الإنسان أن رومية ـ عاصمة إيطاليا ـ ستفتح كما فتحت القسطنطينية؟ أجل. ذاك هو الوعد الذي نرقبه. لا . عفوا يا محمد. يرقبه العاملون أما الخاملون فحسبهم إستبعاده أو السخرية منه. تفتح رومية؟ أجل. ورب الكعبة. تفتح بالكلمة الطيبة والدعوة الحسنة. وما الغريب في ذلك وأنا بعيني وعلى يدي أحيانا بفضل الله سبحانه أرى الناس يدخلون في دين الله؟ اليائس من الإنسان يائس من الله قولا واحدا لا معقب عليه. اليأس من الإنسان يأس من رب الإنسان. أكرم بنبي يملأ الصدر أملا

(((6)))

أم يوم علمتنا أن اليقين في الله سبحانه هو إكسير الحياة ووقود الرحلة وذخيرة المعركة؟ ألم تقل لصاحبك وأنتما في الغار والشرطة الدولية لقريش تبحث عنك وصورتك معلقة في كل المخافر والجوائز المرصودة لجلبك أو الدلالة عنك تجعل اللعاب سائلا أنهارا وغدرانا : ما ظنك بإثنين الله ثالثهما ؟ كلمة لا شك أنك تتبع فيها أخاك موسى عليه السلام وهو يبعث الأمل في بني إسرائيل وفرعون يغذ السير خلفهم غذا : كلا. إن معي ربي سيهدين. ألم يسجل الوحي هذا المشهد العظيم : إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا. أنت الإمام الذي يبعث اليقين ويوقد الأمل ويوري الثقة في الله أوّلا وفي الإنسان ثانيا. بلا يقين وبلا أمل وبلا ثقة في الله أوّلا وفي الإنسان ثانيا تغدو معركة الحياة خاسرة ويغدو الإنسان فيها مهزوما قبل أن يصعد إلى الحلبة

أم يوم علمتنا الجمع بين الأدب الجم وبين كرامة الإنسان توسطا وإعتدالا وتوازنا عجيبا؟ ألم نخبر عنك أنك إذا دخلت على قوم بعضهم وسنان ـ أي في الدرجة الأولى من النوم ـ وبعضهم يقظان تسلّم عليهم تسليما لا يوقظ وسنانهم ويسمع يقظانهم؟ لم أجد لسانا يعبر عن هذا المشهد العجيب الكريم العظيم. لم أجد الكلمات الوفية له. إكرامك الإنسان أن تسلم وإكرامك الإنسان ألا تحرمه حقه في النوم وإكرامك الإنسان أن تتوسط بطريقة معتدلة متوازنة يأخذ فيها كل منهما حقه. لله درك يا محمد. كرامتنا بك أشد كرامة

أم يوم أخبرنا ربك عن حرصك على الإنسان؟ ألم تكن تبخع نفسك ـ أي تهلكها ـ ألاّ يؤمن الإنسان؟ ألم تكن تذهبها حسرات على الذين لا يؤمنون؟ أليس ذلك من فرط حرصك على الإنسان.؟ ألم يكن يكفيك أن تدعو إلى ربك كما أمرت ثم تفيئ إلى بيتك مستريحا. لا. هذا شأن الدعاة الذين يدعون الناس بعقولهم وليس بقلوبهم كذلك. أنت الداعية الذي يحدث الناس بحديث القلب قبل حديث العقل. أنت تعرف حر نار جهنم ولذلك لا يغمض لك طرف ألاّ يؤمن هذا الذي قضيت معه يوما أو عاما أو أكثر أو أقل. أنت النبي الإنسان الأحرص على الإنسان وكفى يا محمد

(((7)))

أم يوم علمتنا قيمة الإخلاص. ذلك الشعور الصافي الذي يغسل أدران الفؤاد كما يغسل الماء أقذار الأرض. علمتنا الإخلاص في أجلى أغواره إذ ظللت تناجي ربك بدعاء ضارع خاشع وأنت عائد من الطائف طريدا وحيدا شريدا من بعد أن أغروا بك صبيانهم وسفهاءهم. تعروا حتى عن عروبتهم في شهامتها وكرامتها ووفائها وإقرائها الضيف ومروءتها بمثل ما تعرت قريش إذ قتلت إمرأة على غير عادتها أن إختارت بحرية تامة دينها أي سمية أول شهيد في الإسلام. كان يمكن لك يا محمد أن تجيب دعاء جبريل فيطبق عليهم الأخشبين أن طردوا نبيا يدعوهم بالرفق إلى الخير. كان يمكن لك أن تدعو الله عليهم. ولكنك دعوت لهم. شأنك دوما يا محمد يا كبير الكبراء. هذا الدعاء الخاشع الضارع الذي حمّلت فيه المسؤولية لنفسك وليس للمعرضين. هذا الدعاء لو لزمناه لخلصت قلوبنا لربك ولربنا يا محمد. „ اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى بعيد ملّكته أمري. إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت عليه السماوات والأرض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحلّ بي غضبك أو يتنزل عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين". دعاء ضارع خاشع خالص منيب لسان حالك فيه يقول : هذه هي معركة الحياة فلا فائدة في إلقاء اللوم على أحد. حتى على المعرضين أنفسهم الذين كذبوا نبيا وليس داعية والذين أساؤوا رفادة عربي منهم وهم المعروفون بإقراء الضيف. ذلك هو مخ الإخلاص لمن ينشد الإخلاص

أم يوم علمتنا خلق الوفاء. ذلك الخلق الذي به يكون الإنسان إنسانا وليس حيوانا مفترسا. أنت بشر مثل كل بشر يا محمد. تشعر بحلاوة التقدير وتستهجن قذارة التوهين. بشر مثل كل بشر تتألم وتبكي وتضحك وفيك ما في كل البشر. سوى أن الله حباك بنفس عالية وهمة أعلى بما يجعلك تتعالى عن الجراحات مهما كانت ثخينة. علمتنا خلق الوفاء يا محمد عندما ضحيت بإبن أخيك علي عليه الرحمة والرضوان إذ جعلته فداء لك يبيت في مضجعك ليقضي عنك ودائع قريش التي أودعتها إياك. ورب الكعبة يا محمد لو لم يكن فيك عدا هذا الوفاء لكنت لنا إسوة وقدوة وسراجا منيرا. كيف وقد جمعت من الخلق الطيب العظيم الكريم أطرافه. أنى لإنسان أن يعرف منك هذا ثم لا يحبك أو لا يجلك؟ أنى لرجل مثلك يظل هدف المشركين بالنهار يبحثون عن قتله والإيقاع به وعندما يسدل الليل أطرافه على مكة يستأمنونه أغلى ما يملكون؟ لا يستأمنون عليها أزواجهم وأبناءهم. إنما يتسودعون هذا الرجل الذي يظلون يقاتلونه في النهار. أنت لهم في النهار عدو وفي الليل مصرفا أمينا ومستودعا لأغلى ما يملكون. طبت وطاب خلقك ورب الكعبة يا محمد. لن أزال أقول في نفسي ولأخواني : عندما نرتفع إلى خلق الوفاء فيستأمننا الخصوم والأعداء على أغلى ما

يملكون حتى وهم يقاتلوننا بألسنتهم وأقلامهم بالنهار .. عندها فحسب لا حرج علينا أن نرقب أمل الفجر الباسم.أما قبلها فلا. قبل ذلك لا داعي لبث الفرح ولكن لبث الأمل. أوفى منك لم تلد النساء يا محمد

(((8)))

أم يوم كنت تنادى في العرب جمعاء : الصادق الأمين. وليس تنادى بإسمك : محمد؟ أي رجل أنت وأي إنسان أنت؟ لا ريب في أن ربك يعدك لمهمة بناء الإنسان بالخلق العظيم. حتى والوحي لم يباشر منك شغافا كنت شامة بين الناس. نسي الناس إسمك الذي به سميت به. نسوا ذلك إذ طغى خلقا الصدق والأمانة عليك. بشهادتهم هم أنفسهم كنت الصادق في مجتمع بلغته الكذب " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ". بشهادتهم هم أنفسهم كنت الأمين في مجتمع يخون بعضه بعضا. لا أجد شرفا أكبر من هذا يا محمد.
الصادق الأمين حتى وربك لم يوح إليك بشيء؟ إنما هو يصنعك على عينه سبحانه كما صنع موسى من قبل على عينه. أولئك هم الهداة لا بد من صنعهم على عينه سبحانه صنعا. أولئك هم الرعاة لا بد لهم من شهادة من أقوامهم من قبل أن يبعثوا إليهم. شهادة الصدق والأمانة فيك من لدن الذين سيخرجونك ويقاتلونك هي عربون حق أنك لا تبغي من دعوة الإسلام عدا خيرا للناس. أي قلادة أغلى من أن يخلع على إمرئ من لدن خصومه أنه الصادق الأمين؟ أقول في نفسي دوما : كسبت المعركة من قبل أن تصعد على الحلبة. أجل. حياتك معركة أو لا تكون. حلبتها الفكر والخلق. وعندما تقلدت من قريش نياشين الصدق والأمانة فلم يعد لهم أي عذر حتى يصدوا عنك. ولكنه الكبر الأعمى. بالصدق كسبت المعركة وبالأمانة علمت الإنسان كيف يكون إنسانا لا ذئبا مفترسا

أم يوم سلمت مفتاح الكعبة لصاحبه المشرك في فتح مكة ومباشرة من بعد أن صليت فيها ما شاء لك الله أن تصلي. كان يمكن لك يا محمد وأنت الفاتح المنتصر أن تعتقل أولئك الرجال أو أن تصفيهم أو أن تعذبهم أو أن تحتفظ بهم حتى تستكمل حالة الطوارئ مدتها. كان يمكن لك أن تتسلم منه مفتاح الكعبة وهو مشرك صاغر. أليس كذلك يفعل الفاتحون في كل زمان ومكان؟ لا. أنت مفتوح لك ولست فاتحا حتى وأنت في قلوبنا جميعا خير الفاتحين بإذن رب العالمين. أنت مفتوح لك. هكذا علمك ربك وعلمنا أن الأمر كله بيده هو وحده سبحانه ومن دون إعدام لإرادة الإنسان ولكنها مقتضيات العبادة فلا يملك العابد في حضرة معبوده شيئا لمن يفقه حقيقة العبادة. أنت مفتوح لك " إنا فتحنا لك ..". أنت منصور " إذا جاء نصر الله والفتح ..". الفعل منسوب إليه وحده دوما سبحانه أن يطغى الإنسان يا محمد. كان يمكن لك أن تحتفظ بمفتاح بيت الله الحرام عندك أو تسلمه أحدا من أصحابك. لا . أنت تعلمنا خلق الوفاء مرة أخرى. الوفاء حتى للمشركين؟ أجل. الوفاء حتى للمشركين. هذا الخلق الذي هو عقبة علينا تقحمها ولكنا لما نتقحمها. لساننا ولسانك يا محمد مختلفان: نحن نقول : هؤلاء كفار فجار وصنوف أخرى لا تحصى من قاموس النعوت. أما لسانك فلا يشغل نفسه بهذا. لسانك مشغول بالوفاء حتى للمشركين. تؤلف قلوبهم. وأي قيمة لمفتاح الكعبة نفسها من بعد أن كنت أنت الفاتح المنتصر وهي تحت إمرتك أنت؟ لا قيمة لمفتاح هزم أهله. الهزيمة هي إذن أن يظل المفتاح عندهم هم. تلك هي إستراتيجية النصر التي غابت على الفاتحين وغابت عنا نحن اليوم أيضا كذلك يا محمد. فريدتك يا محمد أنت تقتل أعداءك بالحب وتأسرهم بالود وتستعبدهم بالإحسان وتنفذ إليهم بالكلمة الطيبة. ذلك هو سلاحك

(((9)))

أم يوم علمتنا قيمة الإيجابية وخلق الفعالية. كان ذلك يا محمد يوم قلت : إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها. أجل. هو مشهد ربما لا يحدث أن تقوم الساعة والناس مشغولون بالعمل . الله أعلم. علمتنا أن العمل مطلوب حتى لو أيقن المرء أنه ميت بعد قليل. الدرس الذي أبيت إلا أن تعلمنا إياه يا محمد هو أن الإنسان حتى يظل إنسانا لا بد له من خلق الفعالية وقيمة الإيجابية فلا يتواكل أو يعلق هزائمه على مشاجب القضاء والقدر. المهم هو أنك علمتنا يا محمد أن العمل هو طريق الفلاح والنجاح والفوز في الدنيا والآخرة. عجيب أمرك وأمر دينك يا محمد. عجب عجاب أن تأمرنا أن نواصل العمل حتى والساعة قائمة أو هي على وشك القيام. تريد أن تغرس فينا خلق العمل وقيمة الفعالية والإيجابية وليس التبطل والتكسل والتخلف والتبعية والمديونية كما هو حالنا اليوم. علمتنا يا محمد أن الفسيلة ليست سوى مثلا يضرب إذ الفسيلة اليوم هي قلم وهي دواة وهي رفش وهي فأس وهي سبورة وهي حاسوب وهي طائرة وهي سيارة وهي دابة وهي حرث وهي مصنع وهي معمل وهي درس وهي بحث وهي إجتهاد وهي تجديد وهي كل عمل نافع للناس. أي فائدة أن نغرس فسيلة والساعة على وشك القيام؟ إنه درس القيمة ومعنى القيمة. علمتنا يا محمد قيمة القيمة. ما عفا شيء عن قيمته أو إنتزعت دسائم القيمة من شيء حتى ظل فارغا فراغ بطن عجل بني إسرائيل الذي تنفخ فيه الرياح فيخيل لهم أنه عجل له خوار. علمتنا أن العمل حتى لكسب العيش عبادة لا تقطعها حتى قيام الساعة. علمتنا يا محمد أن الدينا والآخرة شيء واحد. كلاهما يتطلب عملا وغرسا. غرست فينا بغرس الفسيلة يا محمد قيمة القيمة وخلق الإيجابية. من يغرس فسيلة في الأرض يغرس الله في قلبه فسيلة توكل وعمل وقيمة

أم يوم علمتنا كيف نكون رجالا كبارا و ليس أطفالا يا محمد؟. كان ذلك عندما سألك السائلون عن يوم القيامة. متى الساعة يا محمد؟ سؤال تكرر عليك مرات وتكرر في القرآن كذلك مرات. صاحب السؤال فارغ دون ريب أي بطال حتى لو كان مؤمنا. الإيمان يدفع إلى العمل ولكن بعض المؤمنين يدفعهم إيمانهم إلى التبطل والفراغ. أولئك هم الذين لم يكسبوا في إيمانهم خيرا والعياذ بالله. كان يمكن لك أن تنهر كل مؤمن يسألك : متى الساعة؟. لا. ليس هذا خلقك يا أمين السماء والأرض. ليست هذه شيمتك يا رمز الصدق وعلم الأمانة. إنما كان جوابك في كل مرة يراعي السائل. قلت لأحدهم ذات مرة : تقوم ساعتك يوم موتك. ربطته بالموت وقلت الحق في آن واحد. لله درك . لا ينفصل الحق عندك عن سبيل التصريح به. هما عندك سيان. إذ لا تزدان القارورة الجميلة إلا بسائل أجمل . أنت الجمال وأنت الكمال وأنت الجلال. أنت الفؤاد الذي لفرط جماله لا ينبع منه إلا الكلم

الطيب يا محمد. السائلون عن الساعة فارغون بطالون. السائل عن الساعة يريد الهروب والفرار من تكاليف الحياة. هو مقاوم كره المقاومة لأنه ضعف وخار عزمه. لا يسأل عن الساعة عاقل. إنما العاقل من يجدد إيمانه بها. قلت لسائل أخر عنها : ماذا أعددت لها؟ أجل. أحلته إلى الإيجابية والفعالية مرة أخرى يا محمد. كان يمكن لك ألا تجيبه أو أن تجيبه بما أجبت الذي قبله. لا . أنت الطبيب الذي لا يصف دواء إلا من بعد فحص دقيق وتحليل للسوائل أدق. الطبيب يحلل سوائل البدن ليكشف عن سبب المرض. أنت طبيب البشرية يا محمد تحلل سوائل النفس لتكشف عن المرض العقلي الذي أصاب الناس أن يركنوا إلى الفراغ والتبطل فيؤزهم الشيطان ويجعلهم يسألون عما حقه الإيمان وليس السؤال أي : متى الساعة. فعلا لكم صدقت يا محمد : ما أعددت لها. تريد أن تقول له : هي قائمة لا محالة وهي محكمة معقودة وأنت مدعو للمثول أمامها متهما حتى تبرءك أفعالك أو ترديك في النار. المهم ما قدمت لتلك المحكمة ولجلساتها وما أعددت من شفعاء ووكلاء ومحامين وملفات. أما السؤال عن شيء واقع لا محالة فهو الحماقة التي أعيت من يداويها

الذي به نصرك ربك يا محمد

(((10)))

أم يوم علمتنا خلق الحياء يا محمد. يا معلم الناس الحياء. كيف لا وأنت الذي أخبرتنا أن لكل شيء زينة وزينة الإسلام الحياء؟ الحياء ذلك الخلق الذي خلعت ثوبه القشيب وجائزته المهيبة على أحد أكبر أصحابك وهو عثمان ذو النورين عليه الرحمة و الرضوان. عثمان أشدكم حياء هكذا صرحت يا محمد. الحياء الذي علمتنا إياه يكتسب بالثقافة العملية كما نقول نحن اليوم وليس بالثقافة القولية إذ أن الحياء ـ مثل كثير من الخلق الطيب الكريم العظيم ـ لا تفيد فيه المواعظ ولا الأقوال مهما كانت مجيدة كريمة. ليس هناك ولي يقول لإبنه : تعال هنا أعلمك الحياء. لا . من يفعل ذلك ليس حييا ولم يفقه من الحياء حبة خردل. الحياء ثقافة عملية أي أن الطفل الصغير حتى وهو ما يزال يحبو عندما يرث على أبويه خلق الحياء فإنه يكون حييا بالفطرة والسليقة وإن هو ورث عنهم روث التحلل والتسيب والفساد والتعري فلن يكون حييا. الحياء خلق فيه الموروث وفيه المكتسب وأظن أن المكتسب فيه أقوى من الموروث. والله أعلم. علمتنا خلق الحياء يا ملك الحياء يا محمد. علمتنا خلق الحياء يا سيد الحياء يا محمد عندما أخبرنا عنك أصحابك أنك إذا رأيت مقبلا إليك تنظر إليه
لتعرف من هو ثم تغضي حياء فلا تحملق في وجهه أو تحدجه بنظرات ثاقبة ماضية. ليس ذلك من الحياء كما نفعل نحن اليوم إذ نحدج الناس بأبصار نأكلهم بها أكلا أو نحملق في وجوههم ننقرها نقرا. علمتنا الحياء يا ملك الحياء عندما أخبرنا عنك أصحابك عليهم الرضوان والرحمة أجمعين أنك إذا صافحت رجلا فإنك لا تنزع من يمينه يمينك حتى ينزع هو. هذه كذلك دوختني والله منك يا محمد. أجل. دوختني أن تكون حييا إلى هذه الدرجة. دعني أترجمها بلساني المعاصر لأقول أنك علمتنا خلق الحياء في ثوب كرامة الإنسان إذ كأنك تعطي هذا الإنسان الذي يصافحك حق المصافحة والمتعة بملامسة يد نبي كريم عظيم ذي خلق عظيم حتى يشبع منها وما يشبع منها جائع والله. ألهذا الحد أنت حيي يا محمد؟ أجل يا ملك الحياء . أجل يا سيد الحياء. ومن حيائك أخذ صهرك عثمان قبسا تربع به بعدك على عرش الحياء

أم يوم علمتنا خلق الحياء في مشاهد أخرى يا محمد إذ أخبرنا أصحابك أنك لفرط حيائك
يا ملك الحياء كنت أشد حياء من العذراء في خدرها؟ عذراؤكم أنتم وخدرها هي أما عذراؤنا نحن فلا وجود لها إلا قليلا وليس لها خدر أصلا. لكم تبدلنا بعدك يا محمد ولكم تغيرنا من بعدك يا محمد. أشد حياء من العذراء في خدرها؟ أجل. والله. لو كنت حييا حياء العذراء فحسب لكفاك . لا. أنت أشد منها حياء وهي في خدرها. صلى الله عليك يا ملك الحياء وسلم عليك يا أمير الحياء تسليما. أخبرنا الله يا محمد عن حيائك إذ قال : فيستحيي منكم. قال ذلك في سياق منعه المؤمنين أن يدخلوا بيتك إلا لحاجة وإذا دخلوا فلا يطيلوا المكث إذ يضايقك ذلك ولكن لفرط حيائك يا ملك الحياء لا تظهر لهم ذلك. أي فخر لك يا محمد أن يصفك ربك بالحياء : فيستحيي منكم. ولكن الله سبحانه لا يستحيي من الحق. الحق أولى أن يقال وأن يتبع. نحن اليوم كذلك نفعل بمثل ما فعل بعضهم أي يدخل بعضنا بيوت بعض أحيانا بلا إذن ولو أذن لهم أطالوا الجلوس والكلام ويكون صاحب البيت أو صاحبته في ضيق لأي سبب كان فيستحيي المسكين أو المسكينة ويضطر إلى المجاملات والبسمات والثقيل لا يفهم شيئا مما يدور في الصدور. لذلك علمتنا خلق الحياء يا ملك الحياء. ولذلك أدرج الله ذلك في كتابه وما ذلك سوى لقيمة خلق الحياء ولأنه لا بد منه لتواصل قيمة التآخي والتكافل والتحابب والتغافر وإلا شعر المرء بالضيق في المكان الذي لا يرتاح في سواه أي بيته ومهجعه حيث يتعرى ويتمدد ويأتي ما لا يأتيه بحضرة الناس. كان الناس في زمانك يا محمد لا يأكلون بحضرة الناس إلا قليلا أو لضرورة ولا ينامون بحضرتهم كذلك إلا قليلا أو لضرورة ولذلك قال قائلهم : الأكل والنوم عورتان فاخفوهما. الحياء شعور دقيق جدا ولا يتعلمه المرء إلا عملا وليس قولا ومن لم يتعلمه وهو في المهد فلن يكون حييا. هذا الشعور المرهف الذي يجعل الحيي لا يأكل بحضرة الناس إذ في الأكل فتح للفم وإلتهام وقد يكون جائعا نهما أو به عيب ولا ينام بحضرتهم إذ قد يخرج منه ريحا أو صوتا ما يسوؤه أو يسوؤهم. الحياء زينة الإسلام فلكم صدقت يا ملك الحياء

(((11)))

أم يوم علمتنا لغة الحب يا محمد؟
أنت تعلم لغة الحب؟ أجل. والذي بعثك بالحق. أنت نبي الحب ورسول الحب ولكن الناس ـ سيما عربهم ـ لا يعلمون. علمتنا يا محمد لغة الحب مع الطفل إذ كنت تخصص من وقتك الثمين جدا طرفا لطفل يلهو إسمه أبو عمير. لم تشغلك هموم البشرية التي

أرسلت إليها هاديا أن تلهو معه قائلا : ما فعل النغير يا أبا عمير. النغير هو إسم عصفوره. أجل. علمتنا أن مفتاح الحب هو أن تحفظ في رأسك ـ على جسامة الهموم ـ إسم الطفل وإسم عصفوره كذلك. علمتنا أن الإنسان عندما ينادى بإسمه يشعر بالحب والتكريم والتقدير فيتفاعل بالحب. علمتنا أن الطفل يحب لعبته فإذا هو أسماها إسما فما على الولي إلا أن يقرّ له بذلك وما عليه إلا أن يسمي لعبته بالإسم ذاته الذي إرتضاه الطفل لها. تلهو مع الأطفال كأنك طفل يا محمد. وبذلك علمتنا لغة الحب إذ لا يفهم الطفل لغة العقل . ويوم مات النغير حزن أبو عمير فشاركته حزنه يا محمد. تحزن يا محمد لحزن طفل ولموت طير. أجل . ولم لا؟ أليس لتشعر الطفل أنك حزين لحزنه فيفهم لغة الحب فإذا كان أبا أو وليا عرف قيمة الحب وتعامل مع الناس بحب؟ علمتنا يا نبي الحب أن الكبير يصغر مع الصغير ويكبر مع الكبير وإلا فما هو بكبير حتى لو إشتعل الرأس منه شيبا والذقن

أم يوم علمتنا لغة الودّ يا محمد؟
أنت تعلم لغة الودّ؟ أجل. والذي بعثك بالحق هاديا ولكن الناس لا يعلمون. علمتنا لغة الودّ عندما كنت تخطب فوق منبرك ـ وأنت من أنت ـ فإذا بالسبط الحسن أو الحسين يدخل المسجد يتعثر في قميص طويل فلا تتردد بالنزول من فوق منبرك والصحابة ينظرون . تحمله بين ذراعيك وتصعد به منبرك وتعود إلى وضعك وربما لا ينقطع كلامك. ويظل الولد يرضع من حلمك ورحمتك ورأفتك وحبك يا نبي الحب ورسول الودّ حتى تكمل خطبتك ثم تصلي بالناس. هل أنت فعلا نبي يا محمد؟ الذين يقرؤون مثل هذا اليوم لا يصدقون أو لا يكادون يصدقون منك ذلك. حتى الذين يصدقون منك ذلك لا يروق لهم ذلك. نحن عرب يا محمد. نحن ورثنا الفظاظة والغلظة والجفاء يا محمد. نحن بحاجة إلى قبسات من حبك يا محمد. وذات يوم عندما كنت راكعا أو ساجدا يأتي السبط نفسه بل ربما كلاهما فلا يحلو لهما ظهر يمتطيانه عدا ظهر جدهما فيفعلان وتظل راكعا بالناس أو ساجدا أكثر من الوقت المخصص منك في العادة لمثل ذلك فإذا قضى السبطان أربهما منك عبثا ولهوا أكملت صلاتك وبعد التسليم تبتسم للصحابة قائلا لهم : ولدي إتخذ ظهري له مطاء فكرهت أن أقطع عنه ذلك. تبسم الصحابة وفهموا سرّ الأمر ومرّ كل شيء بسلام. تصور يا محمد ـ يا نبي الحب ورسول الود ـ لو حدث مثل هذا مع واحد منا نحن اليوم؟ سيطرد المسكين من المسجد شر طردة ويتهم بالهرطقة والزندقة والردة وربما يجلد في ساحة المسجد أنه عابث لا يقيم لشعيرة الصلاة وزنا. أنه يقدم لهو الأطفال على العبادة . قل لي بربك يا محمد : لم لم يسألك صحابي واحد وهم بالمئات أو الآلاف هذا السؤال الشقي الذي لا يكاد اليوم يغادر لسانا : أخبرنا يا حضرة الإمام الذي كان يؤمنا هل أن سبطك الذي حملت طاهر أم نجس؟ طبعا لم يسألوك ولن يسألوك. مثل هذه الأسئلة الشقية تصدر عن الأشقياء مثلنا. نحن الذين ملأنا الرؤوس بفارقة قوامها أن الدين شيء والدنيا شيء آخر. عدوان لا يلتقيان. الناظر من بعد يقول في نفسه أن صاحب هذه الأسئلة تقي ورع يتحرى الحق والحلال والطهر. ولكن نبي الحق يخبرنا ألا نسأل عن شيء سكت عنه. وشتان بين فارغين يتشدقون بالأسئلة الفارغة وبين رجال شغلهم الجهاد والعلم ووحدة الصف ومقاومة الحياة عن مثل تلك الأسئلة الشقية . أسئلة البطالين والفارغين

أم يوم علمتنا فن القبلة يا محمد؟
أنت تعرف القبلة؟ أجل .والذي بعثك بالحق يا محمد . أنت نبي الحب وأنت رسول الودّ. ولكن أسلمنا وظللنا جلافا غلاظا ما باشر الحب شغاف القلوب. بل ظللنا نظن أن الحب شيء والدين شيء آخر. هما عدوان لا يلتقيان. علمتنا فن القبلة يا محمد عندما جاءك الأعرابي ـ في عام الوفود مسلما ـ فاتفق أن كنت تقبل سبطيك فاندهش الرجل وقال لك بصراحة العرب المعهودة ـ وتلك فضيلتهم الوحيدة تقريبا ـ أنه له من الولد عشرة ما قبل يوما أحدا منهم. ثارت ثائرتك يا محمد ـ يا نبي القبلة ـ وقلت له في لهجة المؤدب الغاضب : وما ذا أملك لك إن كان الله قد نزع الرحمة من قلبك؟ حري بك أن تلقنا نحن اليوم هذا الدرس. أجل. لقد لقنتنا الدرس فهل تلقناه؟ مازال كثير منا يظن أن القبلة أمارة ضعف سيما بحضرة الفحول أو النساء. هي سجية عربية جاهلية ورثناها. كثير منا لا يجازف حتى بإستخدام الكلمة عساها تصرف في أجواء الفساد إلى مصارف النساء. تعلمنا سد الذرائع وليس فتحها حتى هنا. في الفقه وأصوله لها مكان وإن كان قد إنداح وتوسع حتى ضيق واسعا ولكن ما محلها هنا؟ هو التدين المزيف المغشوش المزور يا محمد

(((12)))

أم يوم علمتنا فن التربية يا محمد؟
يوم حلت بين الشباب وبين الرذيلة بأسلوبك الإنساني الخاص. يوم أتى إليك شاب يتوقد لهفة إلى النساء. يطلب منك رخصة للإستمتاع بهن. دعني أستمتع أنا أيضا يا محمد ـ يا نبي التربية ـ بما خلع عليك ربك سبحانه من قرب من الناس. أقول في نفسي دوما : لو لم تكن قريبا من الناس ـ الناس كلهم مسلمهم وكافرهم ومتدينهم ومتسيبهم ورجالهم ونساؤهم ـ لما دنا منك ـ وأنت من أنت وقارا ومجدا ورفعة ـ هذا الشاب يستأذنك الزنى. قربك من الناس جعلك تعرفهم وتعرف مشاكلهم وتحمل آلامهم وآمالهم معا. قل لي بربك يا محمد : من يجرؤ اليوم منا ومن الناس كلهم أجمعين على الدنو من أي مسؤول ـ حتى لو كان أبا في أسرة أو معلما في فصل ـ ليسأله هذا السؤال : إئذن لي في الزنى؟ لا أحد قطعا. أجل . لا أحد قطعا. ليس لأن أهل أولئك قلة ولكن لأن الناس كلهم ـ إلا قليلا من قليل من قليل ـ لا يشعر حالهم أنهم قريبون من الناس. الناس يسألون القريب والقرب لا يكون إلا بالتواضع والحلم والبسمة. أما البعيد المتعالي الغارق في أبهته فلا يسأل لأنه يخشى. أنت كالبدر يا محمد. أستغفر الله بل أنت البدر في جماله وجلاله وكماله ونوره. أنت البدر الذي يظهر للناس عاليا محلقا ولكن نوره الوهاج يضيء لهم الطريق. أنت مع الناس بنورك الوهاج وقربك الحبيب ولكنك في خلقك في رفعة كرفعة القمر يا محمد. ألم تعلم المسؤولين درسا لا ينسى أن القرب من الناس يجعلهم يطمئنون فيطرحون ما شاؤوا من الأسئلة مهما كانت سمجة مقرفة؟ أجل. والله. غيرك يا محمد يشبع هذا الشاب سبا وشتما وتشهيرا حتى يجعله يندم طيلة حياته على اليوم الذي فكر فيه فيما فكر. أنت من طينة أخرى يا محمد. عالجت الشاب الملهوف

على النساء والذي شعر بالقرب منك كأنك أخوه بما يناسبه جمعا بين العقلانية وبين اللطف. قلت له في مسحة عقلانية جعلته يراجع أمره : هل ترضى هذا لأمك؟ هل ترضاه لأختك؟ سألته بروحك الطيبة وقربك الرفيق منه الأسئلة المعقولة والمحرجة في غير كبر. من يجرؤ على القول أنه يرضى الفاحشة لأمه أو أخته؟ لا أحد. أنت مفتاح العقول يا محمد. أنت مفتاح القلوب يا محمد. أنت علمتنا أن لكل إنسان مفتاح فمن أمسك بمفتاح الإنسان ولجه بيسر وفعل فيه ما يريد ومن هجم على الإنسان بغير مفتاح أو بمفتاح غير مفتاحه فلن يلجه حتى يلج الجمل في سم الخياط. عندما أبلغته بقولك البليغ وبلطفك الحبيب ضربت على صدره بيمينك الكريمة حتى قال الشاب عن نفسه أنه جاء إليك وأحب شيء إليه في الحياة هي الرذيلة وبعد كلمات قصيرات حليمات كريمات منك خرج من عندك وأبغض شيء إليه فيها هو ذلك. ألست طبيب القلوب يا محمد؟ بلى والله

أم يوم علمتنا كيف نعالج ثورات الجنس في الشباب؟
علمتنا ذلك عندما كنت تردف إبن عمك الفضل إبن العباس خلفك على بغلتك إذ إعترضت طريقك إمرأة خثعمية روى الصحابة عنها بلسانهم هم أنها شديدة الجمال. ظلت المرأة تستفتيك في بعض شأنها والفضل خلفك ينظر إلى جمالها بلهفة كأنه يفترسها بعينيه وأنت لا تزيد في كل مرة على أن تكف بصره بيدك حيثما أدار وجهه ومن دون أن تشعر المرأة بشيء ومن دون أن تنشغل عن الحديث معها وظل المشهد يتكرر كذلك حتى أنهت المرأة عرض مشكلتها وبعد ذلك نخست بغلتك لتواصل مسيرك وكأن شيئا لم يكن. غيرك ـ أي نحن ومن غيرك يا محمد ـ وهو في قمة الأدب سيمطر الشاب بوابل من اللوم والعتاب والتأديب أما لو كان غير كذلك فسيشبعه ضربا وركلا وأدنى جزاء هو ألا يجعله رديفه فوق بغلته. نبي هذا خلقه. سبحان من شهد لك في الأيام الأولى أنك على خلق عظيم. علمتنا ـ ولكننا لا نريد التعلم منك زعما منا في لا شعورنا أننا أكثر منك ورعا ـ أن معالجة الثورة الجنسية في الشباب بصفة خاصة لا تكون بمثل ما نفعل نحن اليوم أي بالكلام الكثير والطويل والمدجج بالآيات والأحاديث وكأنه كان يعوزك أن تذكر الفضل بآية أو حديث وأنت صاحب الحديث نفسه... علمتنا أن معالجة ذلك تكون بمثل ما فعلت أنت بالضبط. أي حيلولة باليد لطيفة لا عنف فيها ولا إرهاق ومن دون إشعار المرأة أنها في قبضة عينين مفترستين وربما لو أشعرت الفضل بذاك لإنصرم حبل حديث المرأة فأنسيت ما كانت تريد قوله وربما إزداد الشاب لهفة .. لله درك يا نبي التربية ويا رسول الأدب

أقول في نفسي دوما : ربما يقول الناس اليوم أن مثل هذا النبي ليس جديرا بالنبوة إذ هو لا يشعرك بغيرته على الدين والخلق بمثل ما تمثل في رؤوسنا. من المؤكد أن بعضنا يظن ذلك ولكن سطوة المجتمع لا تعيره فرصة للبوح بذلك ومن ذلك ينشأ الغلو والتشدد. أقول في نفسي دوما : متى نفيء إلى هذا المنهاج التربوي النبوي الإسلامي في سماحته ولطفه وقربه ودنوه ومراعاته للفطرة ولصلف الثورة الجنسية؟ لم نتنكر دوما للفطرة البشرية حيث نعامل أنفسنا ـ لا بل غيرنا وليس أنفسنا ـ أننا ملائكة من طينة نورانية؟ ألم نتعلم من هذا الدين العظيم قانون الواقعية؟ لم نستكبر على الوحي ونتعالى على النبوة؟ لم نظن أن ما نحن فيه من طهر يجب أن يكون سابغا لكل الناس؟. لم ننسى أننا كنا مثل ذلك وأشد شرا وضرا؟ لم يتدين المتدين من بعد ما يملأ الأرض فسادا فإذا تدين ـ أو خيل إليه أنه تدين ـ يظن نفسه نبيا مبعوثا؟ لم لا نجمع بين العقل وبين اللطف؟

(((13)))

أم يوم علمتنا كيف نكون خدما في بيوتنا لا فحولا منتفشة يا محمد؟

أخبرنا عنك الصحابة أنك كنت تخصف نعلك بيدك وأنك كنت في حاجة أهلك فلا تعيب طعاما قط فإما راق لك فأكلته وإما لم يرق لك فتركته. أنت عنوان الرحمة بالمرأة يا محمد. ألم يخبرنا عنك ربك نفسه سبحانه إذ كنت تشتري ودّهن حتى لو أدى ذلك إلى تحريم شيء مباح على نفسك؟ أليس ذلك هو مناسبة سورة التحريم؟ ألم تأكل عند إحداهن شيئا فلما ثارت الغيرة عند عائشة وحفصة فتظاهرتا أنك أكلت شيئا كريه الريح قلت لهما : لن أعود. هناك عاتبك ربك سبحانه وإستخدم كلمة التحريم نفسها في إشارة إلى أن منع المباح عن نفسك إرضاء لهما مبالغة لا يرضاها سبحانه. „ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك". أجل. أخبرنا عنك ربك سبحانه أنك تبتغي مرضاتهن حتى بتحريم ما أباحه الله لك. المهم هو أن يبتن سعيدات. ليس هناك زوج مثلك يا محمد إكراما للمرأة ورب الكعبة ولكن لا يعلم هذا لا المسلمون ولا غير المسلمين ويا للأسف الشديد. المسلمون مع المرأة عرب وليسوا مسلمين إلا قليلا وغيرهم يسوقهم الإعلام الجائر وضاعت الحقيقة بين تشددين كالعادة دوما. حتى عندما تدفق الخير على المدينة وطالبنك بالنفقة ما نبست ببنت شفة واحدة بل ظللت تفكر في الأمر مهموما إذ تريد لنفسك ولهن خير الآخرة بترك طيبات الدنيا ولكن الأمر ليس بيدك فظللت واجما. حتى جاء الوحي إليهن يخيرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة والصبر على شظف عيش وبين تسريح بإحسان. الأصل أن يكون مثل هذا ـ أي إتجاهه العام وليس هو بعينه ـ هو سلوك كل مسؤول في المجتمع وفي الدولة من بعدك يا محمد. لنا اليوم في كل بلد سيدته الأولى التي ترفل في الحرير والذهب وتركل النعمة بقدميها والطائرات الخاصة تروح بها وتغدو بين حدائق اللهو والمتعة شرقا وغربا. علمتنا يا محمد أن سيداتنا الأوّل ـ وليس لنا عداهن سيدات ـ إنما هن أولئك الذين رضوا بشظف العيش معك والخير يتدفق على المدينة. سيداتنا أولئك اللاتي رضين بشيء من الجوع إيثارا للمسلمين في الدنيا ولنعيم الآخرة في الآخرة. ألم تشهد فيك زوجاتك بالخير كله إذ قالت الأولى وأنت تخطو خطواتك الأولى على أعتاب النبوة تشد إزرك : كلا والله يا إبن العم لن يخزيك الله أبدا إذ كنت تقرئ الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق وتطعم المسكين وتمسح على رأس اليتيم. لم تقل لك : كيف يخزيك ربك وأنت عنوان صلاة وسجود وركوع أو طواف أو صيام. لا . لأن ذلك لم يفرض بعد. لك رأسمال قيمي أخلاقي قبل ذلك هو الذي جعلك تقوم وتصوم وتعبد وهو الرصيد القيمي الأخلاقي وهو رصيد ما قبل النبوة . ذلك الرصيد الذي شهد به المشركون لك قبل أن تبعث إليهم نبيا إذ كنت تنادى بينهم بالصادق الأمين. ولما خلعت عليك العرب شهادة الصدق والأمانة فقد إستأهلت النبوة. عندما نريد نحن اليوم أن نشيد برجل نقول : قوام صوام وحجاج وغير ذلك. لم لا نقول : صادق أمين يعين على نوائب الحق ويكرم اليتيم ويقرئ الضيف ؟ لأن

الأخلاق لم يعد لها مكان عندنا. الزوج الأخرى التي شهدت لك بالخير هي عائشة إذ لما سئلت عن خلقك ألهمها الله كلمة واحدة أغنت بها فأوفت وأجزلت وكأنها مثلك أوتيت جوامع الكلم ـ كيف لا وهي بنت صديق وزوج نبي ـ إذ قالت : كان خلقه القرآن

علمتنا يا محمد أن يكون خلق الزوج في بيته هو خلق القرآن

كنت تلهو مع عائشة بحصانها ذي الجناحين وفي رأسك هموم الدنيا كلها. ما شغلك ذاك عن هذا. كنت تسابقها عدوا فتغلبك مرة وتغلبها مرة أخرى. كنت تتفهم غضبها إذ تقول لك : ما هجرت عدا إسمك وهي تقسم بقسم ليس فيه إسمك من مثل ورب محمد. كم من مرة دخلت بيتك والجوع يعضك بنابه الغليظ فتسأل هل في البيت ما يؤكل فتجاب بلا فتقول إذن أنا صائم. التافهون اليوم يقصر نظرهم ويحبرون صفحات وكلاما طويلا عريضا حول حكم الصوم بعقد نية والشمس في كبد السماء. هم تافهون لم يتعلموا من سنتك عدا هذا. أولى بهم أن يتعلموا شظفك وزهدك وخلقك القرآني مع زوجك في بيتك. كثير من أمثال هؤلاء التافهين يزبدون فوق المنابر بخلافات فقهية لا أول لها ولا آخر فإذا كانوا في بيوتهم ثارت الثائرات وأقسموا بالطلاق وبأغلظ الأيمان أن الزوج طالق والسبب ليس أنهم لم يجدوا ما يأكلون ولكن السبب هو أن ما وجدوه لم يكن يروق لهم

هذه قالتي التي لأجلها لاقيت الذي لاقيت

أصدق بطاقة عدد 3 وأوفى شهادة في السيرة إنما يستخرجها الرجل من بيته فإن شهدت له زوجه بالخير فهو كذلك وإن شهدت عليه بالشر فهو كذلك. صحيح أن هناك إستثناءات ولكنها قليلة. إستثناء يؤكد القاعدة ولا يلغيها ولكن الفحول لا تحب هذا لأن الأسوة عندهم في البيت هو الأب والجد وليس محمد عليه الصلاة والسلام

(((14)))

أم يوم علمتنا ثقافة الجمال وفقه الزينة؟

لكم أنا بك فخور يا محمد. وربك يا محمد. أجل. والله. فخور أن أكون من المؤمنين بنبي يجمع بين العبادة وبين الجمال. كيف ولا والعبادة هي الجمال. لكم أرثي لحال ملايين من المسلمين مازال التعارض في رؤوسهم بين الجمال وبين العبادة قائما. حالهم يرثى له والله. لم يبهرني شيء في خلقك يا محمد ما بهرني جمعك بين حق النفس في الجمال والزينة والمتعة وبين حق ربك عليك في السجود والركوع. هذا هو سنام الإسلام الذي إذا أدركه الغربيون والغربيات أسلموا وإذا تنكبوه ـ بسبب تأخرنا نحن عن تجلية ذلك ـ تنكبوا الخير كله وتنكبنا نحن معهم فضل الدعوة إلى دين باهر جميل يحض على الجمال ويجعله عبادة. فخور بك يا محمد حتى لأشعر أني أطأ الثريا بقدمي هاتين والله. أجمع بين فخري بك ورثائي المسلمين الذين يتقربون إلى الله بالقذارة والمظهر الرديء والفقر والترذل وبخس الجمال ودهس الزينة. ألم تعلمنا أنت نفسك يا محمد أن الله نفسه سبحانه جميل يحب الجمال؟ أسفي على المسلمين والله. ربهم يخبرهم أنه جميل وأنه يحب الجمال ثم تأتي عصابات منهم يركلون الجمال والزينة بأقدامهم القذرة بحسبان أن ذلك ملهاة شيطانية. أسفي على من لم يفهم هذا الدين حق الفهم .سيحيا شقيا فإذا صعد المنابر أشقى الناس بجهله. لم أجد عنوانا أنسب لهذا الدين يا محمد عدا أنه دين الجمال والزينة. كل ما فيه من تشريعات عقدية وعملية جمال ومحامد ومكارم وزينة وأنت رأس ذلك الجمال كله وأنت عنوان تلك الزينة كلها. ألم يقل فيك الشاعر : خلقت مبرأ من كل عيب كأنما خلقت كما تشاء؟ والحقيقة أنك لو خلقت كما تشاء لما خلقت مبرأ من كل عيب ولكن سبحان من صورك في أحسن صورة وقومك في أحسن تقويم مبنى ومعنى. ولكن للفن الشعري أحكامه

أم يوم علمتنا أن الطيب حبيبك؟

أنت طيب تحب الطيب يا من طينتك الطيب. علمتنا أن الطيب حبيبك والنساء. علمتنا مرة أخرى أن الدين الذي جئت به ممزوج بالجمال والزينة. لا دين إلا وهو ممشوج بالطيب. ألم تقل لنا يا أطيب الطيب : حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة. هل تذكر يا محمد أولئك النفر الثلاثة من الشباب الذين جاؤوا إلى حجراتك فلما أخبروا بعبادتك تقالوها ـ أي وجدوها قليلة ـ فعربدوا قائلين أننا نصوم ولا نفطر ونقوم ولا ننام ولا نتزوج النساء. أتذكر يا محمد أنك خرجت إليهم غاضبا فلقنتهم درسا لا ينسى إذ قلت : أما إني لأخشاكم لله وأتقاكم ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني. أولئك النفر من الشباب يا محمد لهم اليوم فينا فروع نكدة. فروع نكدة ولا محمد لها. بعضنا يخشى أن يواجههم بمثل قالتك وبعضهم لا يوافقك أصلا على قالتك حتى يواجه بها وبعضهم لا يعنيه أمر هذا الدين ودعوته هل يستقيم على ما تركته عليه أم ينحرف. وظلت طائفة قليلة العدد من العدول الراوحل الذين تبحث عنهم يواجهون الأمرّين : أمرّ مثل هؤلاء الذين يحرفون في غلو وأمرّ أولئك الذين ينعتون الإسلام بأنه دين العجرفة والقذارة والتأخر فلا حظ له في عالم الجمال ودنيا الزينة. ورثنا يا محمد أئمة ومنسوبين إلى الدين لا يجرؤون على تلاوة حديثك هذا بحضرة العامة أي الذي تجمع فيه بين الصلاة قرة عين وبين لذة النساء ومتعة الطيب. أجل. والله. يخافون على مراكزهم وأماكنهم وسمعتهم. يخافون الناس ولا يخافون الله. جعلوا من المنابر " أغنية لكل مستمع " أي يحدثون كل قوم بما يشتهون. لم أجد أحلى ما في هذا الدين من جمعه بين حق الله في الصلاة سجودا وتبتلا وخضوعا وخنوعا وركوعا ومسكنة وبين حق النفس في الطيب والنساء. تلك هي وسطية الإسلام وذلك هو إعتداله وذاك هو توازنه

أم يوم علمتنا أن الأحق بالآذان أندانا صوتا؟

أجل. وذلك لما قلت للصحابة أن بلالا أنداكم صوتا ولذا أخترته للآذان. الآذان وسيلة دعاية للصلاة وترويج للدين ولذلك لا بد

للتاجر بالدين أن يكون بمثل البضاعة نفسها. ذاته من ذاتها. أي ندي الصوت إذا أذن وقرأ وجميل الثوب إذا تحدث وعرض وتشع منه الزينة إذ جبلت النفس على حب الإحسان والجمال إحسان والزينة إحسان والصوت الندي إحسان وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ألم نشهد اليوم مئات من الغربيين إنما أسلموا لما سمعوا صوت الآذان في بعض البلاد الإسلامية يشق الصمت المطبق في غلس الفجر بصوت ندي مطرب؟ لا أجد وظيفة للآذان عدا أنه وسيلة إعلامية وأسلوب دعوي وطريقة جميلة للفت الأنظار لعل الناس من ذوي الأصوات الموسيقية الصافية والفطر النظيفة ينجذبون إلى هذا الدين بصوت ندي ناعم يوقظ الزينة في الجبلات. فإذا أذن صاحب صوت رديء فإن رسالتنا إلى أنفسنا وإلى الناس أن هذا الدين هو دين الرداءة. ذلك هو ما يجعلني أفهم قوله سبحانه : هل أدلكم على تجارة ؟ هل أدلكم على دين وعبادة؟ لا. هي تجارة. الدين تجارة وخير التجار التاجر بالدين ولكن دون أن يكون بالدنيا جاهلا فإن كان بها جاهلا فلا خير في تجارته بالدين. ألم تقل لنا يا محمد : زينوا أصواتكم بالقرآن؟ ألم تكن أنت نفسك تطرب لتلاوة أبي موسى الأشعري وتقول له : لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داوود؟ مزمار؟ مزمار يا محمد في تلاوة القرآن؟ أجل. والحمد الله أنك أنت قلتها ولو قالها غيرك لقامت الدنيا ولم تقعد. ولكن لقولك حرمة حتى عند أسلال أولئك النفر من الشباب الذين لم يفهموا جمعك بين النساء وبين الصلاة وبين الطيب وبين العبادة. ألم تعلمنا يا محمد فن الجمال إذ لما دخل المسجد رجل ثائر الشعر قلت لأصحابك مروه بأن يصلح شعره؟

(((15)))

أم يوم علمتنا الصبر؟

علمتنا يا نبي الصابرين كيف نصبر ولم نصبر وعم نصبر ومتى نصبر؟ علمتنا فقه الصبر يا رسول الإنسان الصابر. علمتنا أن الحياة صبر أو لا تكون.

علمتنا الصبر يا سيد الصبارين عندما كنت تسجد لربك حول الكعبة وبين الأوثان فيجيء إليك الشقي ويلقي عليك سلا جزور كله دم وأخلاط فتظل ساجدا لا تنقطع عن ربك ولا تأبه بالسفهاء حتى تنزعه عنك بؤبؤ عينك فاطمة عليها الرحمة والرضوان.

علمتنا الصبر يا أمير الصابرين عندما يعضك الجوع بنابه الثخين وقد حيزت لك الدنيا بحذافير حذافيرها لو شئت ـ ولك الخمس منها والخمس كثير ـ فتدخل على زوجك وتسأل هل من أكل فتجاب بالنفي فتقول أنا صائم إذن. حيّر أمرك الناس يا نبي الناس. قال قائلهم : صام لأنه لم يجد ما يأكل وقال الآخر : صام والشمس في كبد السماء؟ ولا نقول نحن إلا أنك علمتنا عظائم الخلق الكريم كله في مشهد واحد : علمتنا خلق التواضع وعلمتنا خلق اليسر ونبذ التكلف والتصنع وعلمتنا خلق الصبر وعلمتنا خلق الزوج في بيته ومع زوجه. ذلك من دلائل نبوتك أنك تعلم الناس الخلق العظيم كله في مشهد واحد.

علمتنا الصبر يا حبيب الصبر عندما فقدت الولد ـ إبراهيم الذي لم يبلغ الحنث ـ فما ولولت وما يئست وما سخطت ولكن جمعت بين محمد الإنسان وبين محمد النبي المعلم إذ كنت إنسانا فطريا جبليا كامل الإنسانية فبكيت وذرفت عينك حرى الدمع على فلذة كبدك وبذا علمتنا كيف يكون الإنسان إنسانا لا صخرا. كما كنت محمدا النبي إذ علمتنا كيف نصبر صبرا لا ينافي حزن القلب ولا دمع العين ولا قولا بمثل قولك : وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ... علمتنا ألا نكون بهائم ساخطين إذ قلت : ثتنان في أمتي هم بهما كفر : النياحة على الميت والطعن في الأنساب... علمتنا الصبر على المصيبة

علمتنا الصبر يا نقيب الأنبياء الصبارين الشكارين إذ روى عنك الأصحاب أنك كنت تقوم الليل حتى تتفطر قدماك الشريفتان دما ينبع. يرون ذلك فتأخذهم بك الرأفة قائلين : أنى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فتقول بلسان الصبار الشكار : أفلا أكون إذن عبدا شكورا؟

علمتنا أن الصبر والشكر وجهان لقيمة أخلاقية واحدة فلا يكون المرء صابرا حتى يكون شاكرا ولا يكون شاكرا حتى يكون صابرا وإلا فهو كذاب أفن ينبهر به السذج والتفه.

علمتنا الصبر يا نبي الصبر عندما يخنقك المشرك الجلف الغليظ حتى تحمر صفحة عنقك يطلب دينا له من بني هاشم فتقضي له بدينه المستحق وتقول معلما ومؤدبا : رحم الله إمرء سمحا إذا باع سمحا إذا إبتاع سمحا إذا قضى سمحا إذا إقتضى. إذ الصبر سماحة أو لا يكون.

علمتنا الصبر على الناس عندما يؤخذ بيدك أو مناجاة كما يفعل كثير منهم يظن كل واحد منهم كما يروون هم أنفسهم أنه الأدنى إليك لفرط عدلك بينهم في لينك وعطفك ورحمتك ورأفتك وسماحتك .. لله درك ورب محمد يا محمد .. لله درك والله.. هذه وحدها دوختني . كيف تكون مع الناس أجمعين هينا لينا صبارا شكارا حتى يظن كل واحد منهم أنه الأقرب إليك والأحب .. تصبر على أحاديثهم الطويلة وكثير منها فارغ لا قيمة له ولكن تشعره أنه صاحب قضية فتستمع له وفي رأسك ما لا يحصى من الهموم ...

علمنا الكتاب الذي جئت به إلينا أن الصبر أربعة : صبر وتصبر ومصابرة وإصطبار. جمعت كل ذلك إليك في صدرك يا نبي الصبر. علمتنا أن الدنيا دار عمل لا جزاء فيها فلا بد أن تكون دار عمل وصبر وإلا إستحالت دار نزهة كما نريدها نحن فلا تستحيل لنا كذلك. علمتنا أن الصبر هو زينة الحياة فلا يدرك المرء ـ بغض النظر عن دينه ـ بغية إلا بالصبر.

يكون الصبر عملا فرديا في مشهد فردي كما يكون التصبر تفعيلا لذلك الصبر مرة من بعد مرة حتى يكون خلقا مخلقا في الفؤاد وسجية. كما تكون المصابرة عملا مزودجا بين الصابرين وتطويلا لنفس الصبر والتصبر في الحياة وفي كل مشهد وبذا ينقطع الصبر ويضعف التصبر ولكن المصابرة لا تنفد. أما الإصطبار فيكون زيادة على الصبر في ما يغشى المرء غشيانا لا ينفد في

مثل الصلاة التي تتطلب إصطبارا لا صبرا فحسب ولا تصبرا وفي مثل الزوج التاركة للصلاة التي تتطلب مثل ذلك كذلك .,.

علمنا كتابك الذي جئت به إلينا من ربك يا محمد أن خير ثواب هو ثواب الصابرين إذ قرأنا فيه : إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب. ولأن الصبر أشق عبادة على الإنسان فإن أجره يخرج من الجدول المسعر المثمن الذي أمددت به الملائكة الذين يتولون حساب الأعمال. الصبر كالصوم من ثوابك أنت الخاص دون خضوع للجدول السعري الذي وضعته أنت بنفسك يا الله.

بقيت كلمة واحدة

إذا كنت قد تعلمت بالضرورة وفقه الحياة ألا ينال شيء أبدا طرا مطلقا إلا بالصبر فلا تكن أحمق زيادة عن اللزوم لتظن عجرفة وغرورا أن هداية الناس وإستقامتهم هي العمل الوحيد الذي يمكن أن يكون دون صبر منك عليهم.

إختبر نفسك فإن صبرت على الناس صبرا لا حدود له حتى تفنى أنت ولا يفنى هو فأنت هاد مهدي وإن ضقت بهم ذرعا ففررت أو سئمت أو عنفت أو أرهبت فلا صلة لك بحقل الدعوة والهداية والحوار والأصلح لك أن تلج حقلا آخر.